

الإثنية 10-12-2007

## 101- الطفيل والتعدد والنمو والإبداع

## مقدمة

يبدو (مرة أخرى) أنه لا مفر من استمرار فتح ملف "تعدد الذوات" في التركيب البشري، والذي اسميناه بالعامية المصرية، "أنا واحد ولا كثير" فثبت أنه اسم أبلغ دلالة، ذلك أنني بعد كل يومية في هذا الموضوع ألاحق (أو أتصور أنني ألاحق) بتساؤلات أو اعتراضات أو حماس وتصفيق، أشعر من خلالها جميعاً أننا بعيدون عن الإلمام بأبعاد القضية كما عاينتها وأريد توصيلها بشكل أو بآخر.

حين عرجت أمس إلى علاقة الإبداع بفكرة التعدد، أو بدقة أكثر، بحقيقة **حركية التعدد**، كنت آمل أن أنجح في التأكيد على ما هو حركية في هذه القضية، بديلاً عن التوقف للتوصيف الساكن لذوات متعددة، مهما أوضحنا آليات وإعراب العلاقات بينها.

فإذا حاولنا مراجعة اختبار هذا الفرض كما تم في برنامج "سر اللعبة" link & link مع أسوياء متطوعين، لوجدنا أن النجاح الذي تحقق نسبياً في إثبات الفرض تم من خلال أن اللعب **نجح في تحريك الوعي نحو احتمالات ممكنة**، دون فرض وجهة نظر بذاتها.

الذي زاد الأمور اهتزازاً أو خطراً، لم يأت من ناحية المتحفظين والمترددین في قبول الفكرة، بل من حماس الموافقين المختزلين لها. من أهم أشكال الاختزال كان الاقتصار على استعمال بعض لغة نظرية التحليل التفاعلاتي Transactional Analysis، أقول "بعض" هذه اللغة وليس كلها، الثالوث الذي يستعمل عادة هو ثالوث حالات "الطفل"، "اليافع"، "الوالد". نادراً ما قابلت من يعطى مستوى التحليل الفوقى أو البعدى Meta-analysis، أهمية كافية، وكذلك لا أحد يستعمل مفهومهما أدق وربما أهم هو مفهوم "وحدات الأنا" أو "وحدات الذات" Ego Units.

التحليل البعدى يتكلم عن أن كلا من هذه الذوات الثلاث الأشهر هي في ذاتها تحتوي طفلاً يافعاً ووالداً.

أما "وحدات الذات" فهي تعنى عددا بلا حصر من وحدات "فكر-وجدانية-سلوكية" معاً، يعلوا بعضها بعضاً، أو يتلو بعضها بعضاً.

ما أسهل أن نتكلم عن الطفل بداخلنا. أو أن فلانا مهما بلغ سنه أو شاعت عبقريته يتصرف بطفولة جميلة وطازجة، فيبدو طفلاً كبيراً، المسألة ليست بهذه البساطة، كما أن هذه البساطة لا تحم الفكر (أو الحقيقة) بما تستحق.

### البداية

لعل البداية من حركية الإبداع قد وضعتنا أمام ما ينبغي تناوله بزيد من التوضيح تدريجياً، وهو أن نواصل تقديم ما يدعم الفكرة (أو الحقيقة) من خلال تطبيقاتها وتجلياتها عند الأسوياء قبل المرض، أكثر من التنظير والمناقشات فإذا كنا قد بدأنا بالمتطوعين في برنامج "سر اللعبة"، ثم عرجنا إلى شهادات المبدعين، فنحن اليوم نحاول أن نتبين مزيداً من معالم الأطروحة من خلال النظر في الطفولة على مسار النضج.

### مسار النمو وتشكيلات التعدد والوحادية:

• يولد الطفل وهو يحمل كل تاريخ التعدد الذي يمثل تشكيلات كل الأحياء التي كانها وتطور من خلالها، حتى أفرزته (بإذن الله).

• منذ هذا البدء يتناغم إيقاعه الحيوى الفطرى مع الإيقاع الحيوى الكونى المنطلق "الانفصال للاتصال"، ذلك لأن ولادته بشراً تعنى استعداده لأن يكون له وعى ذاتى: انفصالا مؤلماً عن الوعى الكونى، في طريقه إلى اكتساب وعيه الخاص دون خلع مُباعد، بقدر ما هى تعلن بداية مسيرة طويلة واعدة.

• تتلاحق وتتابع بعد ذلك نبضات الإيقاع الحيوى للنمو والتناسق فيعيد الكائن البشرى تاريخه النابض، في مراحل متعاقبة: نعرف ويمكن أن ترصد بعضها، ونستنتج بعضها. ونتخيل بعضها ونجهل أغلبها.

• وفي كل مرحلة، قَصُرَتْ حتى الثوانى، أو طالت حتى السنوات يكون الإنسان الفرد واحداً ظاهراً في لحظة بذاتها.

• وفي نفس الوقت هو محتوى حركية التعدد (أو هو محتوى التعدد حركية) نابضاً من خلال دورات الإيقاع الحيوى.

• ومع كل نبضة نمو -التي قد تمتد سنين عددا خاصة في أزمة المراهقة ومنتصف العمر- يعاد تشكيل التركيب البشرى بحيث تصبح العلاقة بين الكيانات ليست مجرد ترجيح كيان مناسب واحد ظاهر فاعل للموقف الآتى، وإنما عملية تخليق واحدية ضامة طول الوقت من خلال الإيقاع الحيوى المستمر (بطؤريته: الإستيعاب والبسط).

- تتخلق هذه الواحدية الضامة من جدل مستمر، في تطور مستمر، يشمل أكثر فأكثر ما نجح أن ينضم إليها فيتمثلها لتظل نامية متوجهة إلى غايتها.
- لا تتحقق هذه الواحدية كاملة أبدا طالما ظل الإنسان هذا هو الكائن الذى نعرفه بشرا.
- وبالتالي يظل الإيقاع الحيوى نابضا على المستويات التى نعرفها والمستويات التى لا نعرفها، ويظل النمو مضطربا حسب الفرص المتاحة.
- توازيا مع هذه المسيرة، يظل الإيقاع الحيوى الكونى متسقا متناغما -بدرجات مختلفة- بشكل أو بآخر مع الإيقاع الحيوى الذاتى (ربما مرورا بدورات نمو المجتمعات والحضارات).
- كلما تقدمنا في مسيرة النمو تزايد احتمال تخليق الواحدية الضامة التى تتناغم مع الإيقاع الكونى أكثر فأكثر باضطراد.
- في أزمة الموت، يعود التناغم بين الوعى الذاتى والوعى الكونى متسقا بقدر نجاح نمو هذه الواحدية النابضة في تناسق مع إيقاعية الكون توجهها إلى وجه الحق تعالى.

#### حُدس من الإبداع للطفل يدعم فرض التعدد.

تناولت قبلا رأيا أن الباحث هو أداة البحث وحقله في دراسة الطفولة (والجنون) Link ، كذلك فإننى أرى أن المبدع (وهو باحث فانق إن صدق إبداعه) هو أيضا أداة إبداعه وهو يتحسس طريقة إلى عالم الأطفال، أو وهو يوجه خطابه للأطفال، أو وهو ينقد نضًا عن الأطفال.

#### مقتطف دال، ومقتطف

سوف أحاول الآن عرض بعض ما يدعم فرض التعدد هنا من اقتطافات محدودة قمت بها ناقدا في هذا المجال:

#### (1) من نقد نيتوتشكا نزانوف: ديستوفسكى

ذكرت في هذا العمل Link كيف تعلمت سيكولوجية الطفولة، وسيكولوجية النضج من ديستوفسكى أكثر مما تعلمته من كتب علم النفس والتربية، وسوف أقصر على بضعة إشارات لأدوار تجلت في الطفلة نيتوتشكا، هذه الأدوار هى ما قد نشر إليها أحيانا باعتبارها كيانات

منذ البداية بدت نيتوتشكا أمًا لأبيها كالتالى:

نيتوتشكا: "حتى لأستطيع أن أقول أن هذه العاطفة تشتمل على شئ مما تشعر به الأم نحو إبنها من حب وقلق" (ص66)

وهى ذات نفسها تعلن غرابة الأمر (لنتعلم! وباليتنا نفعل) وهى تكمل:

"إن لم يكن مضحكا أن توصف عاطفة طفل بمثل هذا" (ص66)

يبدو أن الذى يحدد "مُن الوالد" و"مُن الطفل" ليس هو

السن أو القبل العلوية أو مَنْ يجلس على ركبتى من، وإنما اتجاه الاعتمادية ونوع وعى كل طرف بالآخر:

فالأب هنا بدا هو الأضعف، إذن: فهو أول بالطفولة!

"كان يتراءى لى أن أبى حقيق بالرثاء، معذب، مضطهد" (ص66)

ثم بالتالى:

"وأن من الظلم ألا أحبه حبا قويا" (ص66)

"ومع أنى كنت طفلة، استطعت أن أنفذ إلى أعماقه" (ص102)

"لا شك أنه هو الطفل لا أنا، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه" (ص102)

وقد ظلت أمومتها لأبيها تلاحقها حتى فى أقصى لحظة فى حياتها حين تركها فى الشارع غدرا بعد وفاة والدتها، فبدلا من أن تثور عليه وترفضه أو على الأقل تعامله تَزَكَا بَتْرِك، ظلت تجرى وراءه لا لتحتمى به.. ولكن لترعاه:

"أخذت أعدو وراءه عدوا سريعا وقد تملكى خوف مجنون.. ووجدت قبعته فى الطريق، لقد سقطت عن رأسه وهو يعدو فحملت القبعة وتابعت عدوى.. كنت أشفق على أبى، كان صدرى يجتئق إذ أتذكر أنه بلا معطف، وبلا قبعة، بعيدا عني"

ثم تتجلى لنا نيوتوتشكا فى تشكيلات وكيانات عدة أطفال بالتبادل غالبا، فثمة: الطفلة الدمية، الطفلة الطفلة، والطفلة الأخت، والطفلة الأم.

قد يقال إنها أوجه مختلفة لسلوكيات متنوعة (ومتناقضة) حسب المواقف المختلفة، لكن النقد ناقش ذلك وما وراءه من كيانات دون أن ينفيه.

ويمكن الرجوع إلى كل ذلك فى النقد الأسمى link ، وفيه امتداد إلى مثل ذلك فى "قصة البطل الصغير" لديستوفسكى أيضا.

هانز كريستيان أندرسون  
فإذا انتقلنا من ديستوفسكى إلى هانز كريستيان  
أندرسون، لراعتنا ثلاثة أمور

الأول: كيف عرف هذا المبدع الشاعر الجميل ذلك التركيب المتعدد النامى للأطفال إلا بأنه استطاع أن يحرك أطفاله بداخله

الثانى: كيف استطاع من خلال ذلك وغيره أن يخاطب الأطفال (بما فى ذلك الأطفال داخلنا)

الثالث: كيف مجدسه الشعري والإبداعي رصد مسيرة النمو هكذا من خلال هذا التعدد.

قصة الظل(11)





بعض الصحف. "ولكن ما هذا!" قال عندما خرج تحت أشعة الشمس، "أين ظلي! إذاً لقد راح البارحة فعلاً ولم يعد ثانية، إن هذا لأمر مؤسف!

أزعجه ذلك كثيراً، ليس لأن الظل اختفى، ولكن لأنه علم بأن هناك قصة ثانية لرجل بلا ظل، يعرفها الناس جميعاً في البلاد الباردة، والآن لو جاء طالب العلم نفسه وحكى قصته، سيقول الناس بأن هذه ليست قصته، وهو لم يكن بحاجة لذلك، لهذا لم يشأ إطلاقاً التحدث عن ذلك، وهذا كان تفكيراً معقولاً.

عند المساء خرج إلى الشرفة مرة أخرى، وضع الشمعة تماماً خلفه، لأنه عرف بأن الظل يريد سيده غطاءً له دوماً، ولكنه لم يستطع غوايته كي يظهر. جعل من نفسه صغيراً، كبيراً، ومع هذا لم يكن هناك ظل، لم يكن هناك أحد! تنحج، إحم! ولكن بلا جدوى.

كان الأمر محزناً، ولكن في البلاد الحارة والتي ينمو بها كل شئ بسرعة فائقة، لاحظ ويا لسروره الكبير وبعد مرور ثمانية أيام بأن ظلاً جديداً قد نما له، برز من قدميه عندما خرج إلى أشعة الشمس. لابد إن الجذر كان باقياً في مكانه. بعد ثلاثة أسابيع صار لديه ظل لا بأس به. وعندما قفل راجعاً إلى البلدان الشمالية، نما أثناء الرحلة أكثر وأكثر، حتى إنه أصبح أخيراً طويلاً وكبيراً جداً حيث إن نصفه يكون كافياً، (ص79) ولما وصل طالب العلم إلى بلده ألف كتباً حول ما هو حقيقى في العالم، وحول ما هو خير، وحول ما هو جميل. ومرت الأيام، والسنوات، سنوات عديدة.

وذات مساء وعندما كان جالسا في صالته، نقر على الباب نقر خفيف.

"ادخل! قال طالب العلم، فلم يدخل أحد، قام وفتح الباب، فرأى انساناً نحيفاً للغاية أمامه، اعتراه إثر ذلك شعور غريب بالمناسبة كان هذا الإنسان حسن الثياب، ومظهره يدل على أنه ذو حسب ونسب.

"من الذى تشرفنى مخاطبته؟" قال طالب العلم.

"نعم، هذا ما فكرت به!" قال الرجل الأنيق "حضرتك لم تتعرف على! لقد صار لي جسم، لدى الآن وفر من اللحم والثياب. حضرتك لم تفكر أبداً بالتأكد في يوم ما بأن تراه بهذا الجاه. ألم تتعرف حضرتك على ذلك القديم؟ نعم، بالتأكيد لم تعتقد حضرتك بأنى سأعود ثانية. معى سارت الأمور بشكل جيد للغاية منذ آخر مرة كنت فيها عندك. لقد صرت صاحب ثروة ونفوذ! لو كنت عبداً فبإمكانى شراء حريت!" خرخشت المسكوكات الثمينة التي كانت معلقة بالساعة عندما أمسك بيده السلسلة الذهبية السميقة التي حملها حول رقبته، باللروعة فالأصابع كلها تلمع بالخواتم الماسية! وكلها أصلية.

"هل أنا في وعي! "تساءل الرجل طالب العلم، " ما كل هذا!"

[1]1 - هذا الجزء مقتطف من مقال نقدى أطول للكاتب ظهر في وجهات نظر، باسم أطفالنا بين روح الشعر ونظم الحكمة، مارس 2005  
[2]1 - هانز كريستيان اندرسون، جريدة القاهرة "الجزء الثانى"، دار المدى، 2005



سأل الظل". كان أجهل الكلد، كانت روح الشعر! كنت هناك لثلاثة أسابيع، كان مفعولها كما لو كان المرء قد عاش لثلاثة آلاف سنة وقرأ كل ما نظم وكتب من شعر، ولأنى أنا الذى أقول، فهو صحيح، لقد رأيت كل شئ وأعلم كل شئ!"

"روح الشعر!" صاح الرجل طالب العلم!" نعم، نعم، إنها متصومة دوماً في المدن الكبرى! روح الشعر! أجل، لقد رأيتها مرة خطفاً، ولكن النعاس خظتها قد أطبق على عيني! كانت تقف في الشرفة، أشرقت كما يشرق الشفق الشمالى! إحك، إحك! كنت في الشرفة، دخلت عبر الباب، ثم..!" سأل طالب العلم.

"ثم صرت في الممر الموزع!" قال الظل. "حضرتك كنت دائماً تجلس وترنو إلى الممر. لم يكن هناك ضوء نهائياً، فهناك ما يشبه الشفق، ولكن الأبواب كانت جميعاً مفتوحة الواحد على الآخر على طول الصالات والقاعات، وهناك أضئ المكان، لو كنت دخلت حيث العذراء لكنك قد مت، لكنى كنت متانياً، أخذت بعض الوقت للتفكير، هذا عين الصواب!"

"وما رأيت بعدها؟" سأل الرجل طالب العلم.

"رأيت كل شئ، ولسوف أحكى لحضرتك، ولكن، ليس اعتزازاً بنفسى، ولكن، ككائن حر وبهذه القابليات التى لدى، إضافة إلى وضعى الجيد وأحوالى الحسنة، أتمنى من حضرتك لو تخاطبني بشكل رسمى!"

"المعذرة!" قال طالب العلم، "إنها عادة قديمة متأصلة! حضرتك على حق تماماً! ولسوف أتذكر ذلك، ولكن الآن ستخبرنى حضرتك عن كل شئ رآه حضرتك!"

"كل شئ" قال الظل، "لانى رأيت كل شئ، وأعلم كل شئ!" (ص 82) "كيف بدت الصالات في عمق البيت؟" سأل طالب العلم.

"هل كان مثل دخول في غابة نضرة أو كدخول إلى كنيسة مقدسة؟ وهل كانت الصالات كبيرة مفتوحة وكأنها السماء المرصعة بالنجوم عندما يقف المرء على الجبال العالية؟"

"كل شئ كان هناك" قال الظل. "حقيقة لم أدخل تماماً إلى الداخل، بقيت في الغرفة الأمامية عند الشفق، ولكنى كنت واقفاً بمكان مناسب، رأيت كل شئ، وأعلم كل شئ!، لقد كنت مع حاشية روح الشعر في الممر الموزع".

ولكن ما الذى رآه حضرتك؟ هل مر بالقاعات الكبيرة كل آلهة العصر القديم؟ هل حارب هناك الأبطال القدماء؟ هل لعب الأطفال الجميلون وحكوا عن أحلامهم؟"

"أقول لحضرتك، كنت هناك، هل بإمكانك أن تدرك، رأيت كل ما يمكن أن يرى! لو جئت لحضرتك هناك، لما صرت إنساناً، ولكنى صرت" وعرفت طبيعتى أيضاً، وما خلقت عليه، علاقتى العائلية بروح الشعر. أجل، عندما كنت مع حضرتك في ذلك الزمن لم أفكر بذلك. ولكن بشروق الشمس، بغياها، كما تعرف حضرتك، صرت كبيراً بشكل غريب على ضوء القمر كنت أوشك

تقريباً أن أصبر أوضح من حضرتك. لم أفهم وقتها طبيعتي، أدركت ذلك في الممر الموزع! صرت إنساناً! خرجت راشداً، كنت حضرتك حينها قد تركت البلاد الحارة، خجلت من نفسي، كإنسان، بأن أخرج بالطريقة التي خرجت بها. احتجت إلى جزمة، لباس، إلى كل تلك الهيئته الإنسانية، التي تجعل إنساناً ما مُعْرِفاً. انطلقت، أجل، أقولها ل حضرتك وحدك، ولن تذكر حضرتك هذا في كتاب، تسللت داخل تنورة الحيازة، اختفيت تحتها. لا تعلم تلك المرأة بما خفي تحت تورقها، لم أخرج إلا عند حلول المساء، تنقلت من مكان لآخر تحت ضوء القمر في الشارع. أطلت قامتى على طول الجدار، ذلك يدغدغ الظهر بشكل لذيذ! ركضت إلى الأعلى، وركضت إلى الأسفل، نظرت عبر أعلى النوافذ، إلى الداخل (ص 83) في القاعة وعلى السقف، نظرت في أمكنة لا يمكن لأحد أن يصلها، ورأيت ما لا يمكن لأحد أن يرى. وما لا يجب لأحد أن يرى! إنه عالم وضيع! لم أشأ أن أكون إنساناً، لو لم يكن هذا الأمر ذا اعتبار ومقرر من الجميع! رأيت كل ما لا يحظر على بال بين النساء، عند الرجال، عند أولياء الأمور، والأطفال الذين لا يباهيهم أحد. "علمت" قال الظل، "ما لا يجب لإنسان أن يعلم، ولكنه يتحرق لمعرفة، كمصاب الحار، لو كتبت جريدة، للاقى رواجاً! ولكني كنت أكتب للشخص المعنى تحديداً، فيحل رعب في كل المدن التي أحل بها. صاروا يخافون مني كثيراً! ولهذا أحبوني كثيراً! البروفيسورية جعلوا مني بروفيسوراً، الخياطون أعطوني لباساً جديداً، لهذا أنا مجهز بكل شيء، والذي يسك النقود سك لي نقوداً، والنساء قلن لي بأنني جميل جداً! وهكذا صرت الرجل الذي أنا عليه اليوم! والآن أودعك، هاك بطاقتي، أسكن في جهة الشمس، وعلى الدوام في البيت في الجو الممطر! وخرج الظل.

"عجيب غريب!" قال طالب العلم.

مرت السنون والأيام، وجاء الظل مرة أخرى وسأل، "كيف تسير الأمور؟"

"أوه" قال الرجل طالب العلم، "أكتب عن الحقيقة والخير والجمال، ولكن لا أحد يعجبه سماع شيء من هذا القبيل، أنا بالفعل يائس، لأن ذلك يغمى.

"لكن أنا لآ!" قال الظل "أنا أصبر أسمن، وهذا ما يجب على المرء أن يحرص على أن يكونه! نعم، حضرتك لا تفهم حقيقة هذا العالم، ستمرض حضرتك من جراء ذلك، وعلى حضرتك أن تسافر! سأقوم برحلة في الصيف، هل ترافقتي حضرتك؟ أتمنى أن يكون لدى رفيق سفر! هل ترغب حضرتك بالسفر معي، كظل؟ إنها لمتعة كبيرة أن تكون حضرتك معي، أنا أتكفل مصاريف الرحلة!"

"إن هذا لكثير!" قال طالب العلم. (ص 84) "ذلك يعتمد على رؤية المرء للأمر!" قال الظل، "ستجني الكثير من السفر! إن قبلت أن تكون ظلي، ستحصل على كل شيء مجاناً في الرحلة!"

هذا جنون! "قال الرجل طالب العلم.

"هكذا هو العالم اليوم! "قال الظل"، وهكذا سيبقى وراح الظل.

لم يكن الرجل طالب العلم على ما يرام. الحزن والعذاب طاردها، وما قاله عن الحقيقة والخير والجمال، كان بالنسبة للغالبية كإهداء وردة لبقرة! وأصبح أخيراً مريضاً بالفعل.

"تبدو حضرتك بالفعل كظل" قال الناس لطالب العلم فاقشعر بدنه للقول، لأنه كان يفكر بذلك.

"يجب على حضرتك أن تقصد حماماً صحياناً!" قال الظل، الذي جاء لزيارته، "لا حل غير ذلك! سأخذ حضرتك معي من أجل معرفتنا القديمة، أنا أدفع تكاليف الرحلة، أما حضرتك فعليك الكتابة وشئ من قبيل الترفيه عنى في الطريق! لأن أود الذهاب إلى حمام صحن، لحيث لا تنمو كما يجب، إنه مرض، واللحية لا بد منها! كن حضرتك عاقلاً واقبل العرض، سنسافر كأصدقاء!".

وسافرا معاً، الظل كان هو السيد، والسيد كان الظل. انطلقا سوية، ركبا العربة ومشيا معاً، جنباً إلى جنب، أمام وخلف، حسب موقع الشمس. الظل حرص على الجلوس دائماً بمكن السيد، أما طالب العلم فلم يفكر هكذا بالأمر، كان ذا قلب طيب، ورفيقاً ولطيفاً جداً، وذات يوم قال للظل: "بما أننا أصبحنا رفيقياً سفر، كما نحن الآن، ونحن أيضاً قد نشأنا منذ الطفولة معاً، ألا نشرب نخب رفع الكلفة بيننا، إنه أمر أكثر ألفة!"

فرد الظل الذي كان هو السيد الآن "سمعت حضرتك، فاسمعي الآن، قولك مباشر وصريح وبنية حسنة، وأود أنا أن أكون حسن النية وصريحاً أيضاً. حضرتك كطالب علم، تعرف بالتأكيد كم هي غريبة. (85) طبيعة الإنسان. بعض الناس لا تتحمل أن تمس الورق الأسمر، تتأذى من جراء ذلك، آخرون تقشعر أبدانهم بمجرد سماعهم أزة مسمار على زجاج نافذة، ينتابني شعور كهذا مجرد أن أسمعك تناديني بـ أنت أشعر وكأنني قد سحقت على الأرض تماماً كما في خدمتي الأولى عند حضرتك. كما ترى حضرتك إنه شعور، وليس تعالياً. لا أستطيع أن أسمع حضرتك أن تقول لي : أنت، هكذا، ولكني أود مناداتك بـ أنت بدل حضرتك، وبهذا نكون قد رفعنا نصف الكلفة".

وبدأ الظل بمخاطبة سيده السابق مباشرة.

إن هذا جنون ولا شك، "فكر طالب العلم"، أن أناديه بحضرتك وهو يناديني بإسمى!" وهو لا يملك إلا أن يتحمل هذا الأمر.

وجاء المصح كان فيه الكثير من الغرباء ومن بينهم ابنة ملك جميلة، كانت تشكو من علة وهى أنها نافذة البصيرة، وهذا ما كان يثير القلق.

انتهت ابنة الملك لهذا الذى دخل فى الحال، كان شخصاً يختلف تماماً عن الباقين، قيل انه جاء ليجعل لحيته تنمو، ولكنى أرى أن السبب الحقيقى أنه بلا ظل.

تملكها الفضول، وراحت تتحدث بالحال مع السيد الغريب أثناء تمشييهما. كإبنة ملك لم يكن الأمر يحتاج للكثير من المقدمات، قالت "مرضكم هو أن حضرتك لا تستدطم أن ترمى ظلا" لايد وإن جلالتم بتحسن! قال الظل، "أعلم بأن مرض حضرتك هو نفاذ البصيرة، ولكنه صار أخف وطأة، لقد شفيت حضرتك، فلدى الآن ظل غير اعتيادي! ألا ترين حضرتك ذلك الشخص الذي يسير دوما معي! فأناس آخرون لديهم ظل اعتيادي، ولكنني لا أحب ما هو اعتيادي. الناس في الغالب تلبس خدماتها أفضل لباس، أنا هذبت ظلي وجعلت منه إنسانا! أجل، وكما ترين حضرتك، فقد منحته ظلا أيضا.

ذلك مكلف جدا، ولكي أحب أن أملك ما هو متميز!

ماذا؟ فكرت الأميرة، هل شفيت فعلا!، هذا الحمام هو الأول (ص86) من نوعه في فعالتيته! يا للماء في وقتنا هذا من قوى عجيبة. ولكي لن أسافر، لأن الأمر أصبح الآن مسليا، يعجبني هذا الغريب بالفعل. عل خيته لا تنمو، كي لا يسافر!"

في المساء وقصت الأميرة والظل في قاعة الرقص الكبيرة. كانت خفيفة، ولكنه كان أخف. لم تر راقصا مثله قط. أخبرته من أي بلد جاءت، وقد عرف البلد، حيث كان هناك، ولكنها في ذلك الوقت لم تكن في القصر، نظر عبر النوافذ العليا والسفلى، رأى كل شيء، ولذا فقد تمكن من إجابة إبنة الملك ملمحا لها بعض التلميحات مما جعلها تتعجب. لعله أكثر الرجال حكمة في العالم كله! أكنث تقديرا لمعرفته، وعندما رقصا معا مرة ثانية وقعت في حبه، وقد شعر الظل بذلك، لأنها كانت قادرة على سبر غوره. ومن ثم رقصا مرة أخرى، وكانت على وشك أن تقولها، ولكنها كانت متعقلة. فكرت ببلدها والمملكة والناس الذين ستحكمهم. "هو رجل حكيم!" قالت لنفسها، "هذا جيد!" وهو راقص جيد، هذا أيضا جيد، ولكن يا ترى هل لديه الملم عميق بمختلف العلوم والمعارف، هل له ذات الأهمية، يجب أن يتم اختياره". وهكذا بدأت قليلا قليلا بسؤاله عن أصعب الأشياء، حتى لاتعرف لها جوابا. تغيرت معالم وجه الظل.

"لايمكن ل حضرتك أن تجيب!" قالت ابنة الملك؟

"إنه سؤال يوجه للمبتدئين، قال الظل، "حتى ظلي هناك عند الباب يمكنه الإجابة عليه!"

ظل حضرتك؟ قالت إبنة الملك، "إنه أمر شديد الغرابة".

"نعم، لا أقول بالتأكيد إنه يعرف!" قال الظل، "ولكني اعتقد ذلك، لقد تبعتني لسنين عديدة وأطاعني، أعتقد ذلك! ولكن لتسمح لي جلالتم، أن ألفت انتباهكم إلى إنه مزهو جدا بسبب النظر إليه كإنسان، فيجب أولا أن يكون مزاج حسن لكي يجيب جيدا على السؤال، ومن ثم عليك معاملته كإنسان بالضبط".

"هذا ما أحبه!" قالت إبنة الملك. (ص87) وتوجهت حيث طالب العلم عند الباب، تحدثت معه حول الشمس والقمر، وحول الناس، خارجهم ودخلهم، فأجابها بذكاء ودقة.

"أى رجل عساه أن يكون، هذا الذى لديه ظل حكيم بهذه الدرجة!" فكرت الأميرة، "سيكون هذا بركة لناسي والمملكة إن اخترته زوجا لى: سأفعلها!"

واتفقت إبنة الملك والظل، فى الحال على ذلك، ولكن لا أحد يجب أن يعلم عن ذلك قبل أن تعود إلى مملكتها.

"لا أحد، ولا حتى ظلى!" قال الظل، وكان له قصد فى ذلك!

وجاء بعد ذلك إلى البلد الذى تحكم فيه إبنة الملك.

"إسمع يا صديقى العزيز!" قال الظل لطالب العلم، "الآن صرت أكثر الناس سعادة وسلطة، الآن أود أيضا أن أفعل شيئا خاصا لك! ستسكن عندى دوما فى القصر، تركب معى فى عربتى الملكية، وتحصل على مئة ألف درهم سنويا: ولكن عليك أن تسمح للناس بمختلف طبقاتهم بأن يخاطوك كظل: عليك ألا تخبر أحدا بأنك كنت فى يوم ما إنسانا، مرة فى السنة عندما أظهر نفسى لتحية الناس فى الشرفة تحت أشعة الشمس، عليك أن تمكث عند قدمى كما يجب على الظل أن يفعل! أخبرك بأنى سأتزوج إبنة الملك، وسيقام حفل الزفاف هذا المساء."

"لا، إن هذا لقمّة الجنون!" قال طالب العلم. "لا أقبل هذا، لن أفعل ذلك! أن تخدع البلد بأكملك وإبنة الملك! سأقول كل شئ! بأنى إنسان، وبأنك الظل، وأنت مجرد ثياب!"

"لن يصدق احد هذا!" قال الظل، "تعقل وإلا ناديت عليك الحرس!"

"سأذهب بالخال إلى إبنة الملك!" قال طالب العلم. "سأذهب قبلك!" قال الظل، "سيقبض عليك". وهذا ما حصل، لأن الحرس أطاعوه، لأنهم يعرفون بأن هذا ما تريده إبنة الملك.

"أنت ترتعد!" قالت إبنة الملك عندما دخل عليها الظل، "هل (ص 88) حدث شئ ما؟ لا يجب أن تمرض هذا المساء، فلدينا حفل زفاف."

"شهدت أفضع ما يمكن لامرئى أن يشهد!" قال الظل، "تصورى، إن دماغ ظلى المسكين لا يستطيع أن يتحمل كثيرا! تصورى، ظلى صار مجنونا، يعتقد بأنه إنسان، وأنا تصورى أنت، أنا ظله!"

"هذا أمر مريع!" قالت الأميرة، "حبسته بالتأكيد؟"

"أجل! لا أعتقد أبدا بأنه سيشفى."

"مسكين هذا الظل!" قالت الأميرة، "إنه تعيس جدا، من الأفضل تحريره من الحياة المتبقية له، وفى الحقيقة عندما أفكر فى ذلك، أجد من الضرورى التخلص منه سرا!"

"ذلك صعب جدا!" قال الظل، "لأنه كان خادما مخلصا!" ومن ثم أطلق ما يشبه حسرة.

"حضرتك نبيل!" قالت إبنة الملك.



على صفة موهوبة إذن،

يدور الحوار بين طالب العلم وظله بعد عودته من رحلته المعرفية الواعدة بتخليق ذاته (ذواته معا) وقد تجسد إنسانا، يدور الحوار بمنتهى الاحترام التلقائي، ثم بناء على إصرار "الظل" على أن يخاطبه "طالب العلم" بـ "حضرتك..." حتى لو لم يفعل نفس الشيء بالمقابل. الاستقطاب المباعدي بين المتحاورين لم يكن مطروحا، فالظل لم يكن هو "حالة الذات الطفلية الحرة المنطلقة" (حسب نظرية التحليل التفاعلاتي) مع أنه كان يمثل الحرية والبحث عن المعرفة الأخرى، كان تخيفا لكنه يافع تماما، وقوى، وواثق من نفسه، ومطالب بمقوقه برغم شكواه من أن "لحيتي لا تنمو كما يجب" إشارة إلى أن النضج لم يتم.

الاحترام هنا ليس التججيل التقليدي بقدر ما هو الاعتراف المتبادل

جدس إبداعي فائق يدرك أندرسن، فيبين كيف أن التكامل بين الذات إنما يتم بالتصالح والمواكبة، لا بالتبادل المستقطب، ولا بالتسوية المائعة، حتى قال طالب العلم للظل ذات يوم وهو يرافقه بناء على اتفاق طيب "بما أننا أصبحنا رفيقن سفر كما نحن الآن، ونحن أيضا قد نشأنا منذ الطفولة معا، ألا نشرب نخب رفع الكلفة بيننا، إنه أمر أكثر ألفة".

في نفس الوقت يعلن جدس أندرسون كيف استطاعت الأميرة أن تنتبه إلى أن "الظل" حين جاء إلى المصح لم يحضر "حتى.. يجعل لحيتة تنمو، ولكن أرى السبب الحقيقي أنه بلا ظل"، (بلا هوية إلا يمكن يكملها) فننتذكر كانديرا في "الكائن الذي لا تحتمل خفته" وبدرجة أقل نتذكر فتحي غانم في "الرجل الذي فقد ظله".

أنظر أيضا ما ورد على لسان "الظل" في عبارة عابرة وهو يحاور صاحبه "طالب العلم"، فيكشف عن دور الإيقاع الحيوي اليوماوي **Circadian** جنبا إلى جنب مع "الأزمة المفترقية": **Cross-Roads crisis** [3]3 يقول لصاحبه بعد عودته "... أقول لحضرتك، كنت هناك، هل بإمكانك أن تدرك ما يمكن أن يُرى؟... عرفت طبيعتي أيضا وما خلقت عليه، علاقتي العائلية بروح الشعر، أجل، عندما كنت مع حضرتك في ذلك الزمن لم أفكر بذلك، ولكن بشروق الشمس، بغياها، كما تعرف حضرتك، صرت كبيرا بشكل غريب، على ضوء القمر كنت أوشك تقريبا أن أكون أوضح من حضرتك، لم افهم وقتها طبيعتي - أدركت ذلك في الممر الموزع، صرت إنسانا، خرجت راشدا".

الراشد، المتكامل الذي قال إريك برن أنه غاية النمو توليفا بين الذات الأساسية الثلاثة لم يتضح أبدا حتى باعتراف صاحب النظرية نفسها إريك برن، أندرسون هنا يشير إليه بسلاسة دون أن يجتزله.

